مقدمة

كُلُّ شيء يعود إلى البداية، كأن «عملية السلام»، الدائرة على نفسها، من أجل تزويد نفسها بالمزيد من عبث الحركة، قد لفظت حقيقتها المراوغة، وأعادت الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي إلى حالته الكلاسيكية المفتوحة على تصعيد لا يستوعبه أيُّ سيناريو واضح.

ليس واضحاً إلاّ أن الشعب الفلسطيني لن يتراجع، مهما كلّفه الأمر، عن خوض معركة الاستقلال الذي يتقدّم سؤالُه الحيويّ أيّ سؤال آخر. فقد بات واضحاً أكثر الآن أن الاستقلال هو الذي يؤدي إلى السلام. وأن «عملية السلام»، الملتبسة الخالية من المضامين الواضحة، قد تؤدي إلى إطالة أمد الاحتلال.

واتضح أيضاً، أن الطرف الإسرائيلي لم يكن معنيّاً بعملية السلام إلا من جانبها الأمني الذي يضمن للاحتلال استمرارية مريحة توفّر له فرصة تطويع الجغرافيا الفلسطينية لتاريخه الخاص.

من هنا، كانت هذه العملية القائمة على تصوّرين متناقضين للمستقبل، مليئة منذ البداية بألغام تهدِّدها بالانفجار، وبالوصول إلى مأزق تاريخي يعبِّر عن نفسه بما نشهده من صراع يتصاعد.

فلا السيِّد الذي عيَّن نفسه سيِّداً على كل شيء، على الشعب والأرض والوعي، بقادر على فرض هذه السيادة، ولا حتى على الاطمئنان إلى صحَّة استقلاله، وإلاّ فما معنى إعلان رئيس الحكومة الإسرائيليَّة «إن حرب الاستقلال ما زالت مستمرة»؟

ولا مَنْ رُشِّح لأن يكون عبداً، هانئاً بالخبز والكلأ، بقادر على الرِّضا بعبوديّة مفروضة أو مختارة. . .

لذا، كانت الانتفاضات، أمس واليوم وغداً، إحدى وسائل التعبير عن إرادة شعب حيّ يرفض اختيار العبودية، التي وعدته بها عملية تسوية انحرفت عن كل مرجعياتها ومعانيها واحتفظت بمعنى إسرائيلي – أميركي وحيد هو: قداسة أمن الاحتلال.

لقد صعَّدت إسرائيل هذا المعنى إلى حدوده القصوى بحربها الشاملة عل الشعب الفلسطيني، على الإنسان والبيت والشجر، في مناخ من الصمت العالمي تقوده واشنطن، لتدريب الضمير الإنساني على التعايش مع قصة موت عادي يُسَمّيه الإعلام الأميركي «العنف المتبادل» لا لشيء إلاّ لتحقيق المساواة النزيهة بين أخلاقيات فعل الاحتلال، المدجّج بأحدث أنواع السلاح، مع أخلاقيات ردّ الفعل، المزوّد بأقدم أدوات الدفاع عن النفس: الحجر والإرادة. فيصبح البولدوزر الإسرائيلي والمنزل الفلسطيني المهدوم نتاج تداخل غامض لفعلين متساويين، ويتحمل القاتل والقتيل مسؤولية مشتركة عن بؤس المصير الإنساني!!!

وهكذا لا يملك «الراعي الأميركي» ما يفعله غير إسداء النصح للإسرائيلي بضبط النفس، ودعوة الفلسطيني إلى وقف العنف! فهل الضمير العالمي هو العاجز عن الكلام؟ أم أن البحث عن فارق عملي بين السياسة الأميركية والإسرائيلية هو العاجز عن التوصل إلى نتيجة تُسَوِّغ الرجاء العربي المعلّق على احتمال ضغط أميركي على إسرائيل، في غياب ضغط عربي على المصلحة الأميركية، في غياب ضغط من الشارع العربي على النظام العربي؟

لقد أصبحت الوساطة هي السلاح الوحيد الذي يحمله النظام العربي في صراع يدور على مصير الشعب العربي الفلسطيني، وعلى ما تبقى من أرض فلسطين التي ما زالت توصف، في الخطاب الرسمي والشعبي، بأنها قضية عربية لا تخصُّ الفلسطينيين وحدهم، ناهيك عن القدس التي تخصُّ العرب والمسلمين.

إن التصفيق للدم المسفوك على الشارع والشاشات، وحثّه على المزيد، والدعاء للانتفاضة بطول العمر، لا يكفي لتمكين البطولة الفلسطينية من تحقيق أهدافها في الاستقلال من جهة، ولتوفير شروط أفضل لعملية سلام من جهة أخرى.

فلا ينبغي لعودة الروح إلى الجسد العربي العملاق، التي لاحت في البداية، أن تكون عودة خاطفة إلى هذا الحدّ.